الفصل الثاني
المجالات الاقتصادية التي ساهم بها الوقوف

تنوعت مجالات إسهام الوقف في حياة الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل و لم تقتصر على جانب معين من جوانب الحياة، بل شملت معظم نواحيها، حيث أسهمت في بناء المساجد ودور العلم والمدارس ورعاية المدرسين والطلاب،وكذا شملت النواحي الصحية عن طريق بناء المستشفيات وتوفير النفقات الخاصة بها، وأوقفت الأوقاف الكثيرة على الجهاد وحماية الثغور وتوفير السلاح... الخ، وما يهمنا في هذا الموضوع هو إسهام الوقف في المجالات الاقتصادية، ولذا نتناوله بشيء من الإيضاح في الأسطر الآتية:

٢-١-الإسهام في توفير البنية الأساسية:

حيث ساهمت الأوقاف بقدر ملموس في توفير البنية الأساسية اللازمة للمجتمع في ذلك الوقت، وتعد خدمات البنية الأساسية المحرك الرئيس والعمود الفقري لتحقيق التنمية الاقتصادية في أي مجتمع، حيث تعمل على تنوع الانتاج، وتوسيع التجارة، ومواكبة النمو السكاني، ورفع مستوى المعيشة، وتحسين الظروف البيئية...الخ، وقد تمثلت مساهمة الأوقاف في هذا الجانب من خلال:

٢-١-١-الطرق والجسور:

أسهمت الأوقاف إسهاماً كبيراً في بناء الطرق وتعبيدها، وإقامة الأميال وتحديدها، وتوفير الخدمات اللازمة للمسافرين بعامة والحجاج بخاصة، وقد كان ذلك منذ عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ثم استمر بعدهم على مر العصور[١]، وفي ذلك يقول أحد الباحثين[٢]: "ولقد كان للخدمات العامة نصيب واسع في نشاطات الوقف وتخصيصاته من قبل المحسنين، فأنشأت ونمت من أموال الوقف شبكة للطرق واسعة ربطت مشرق العالم الإسلامي بمغربه، وأنشأت الموائل والخانات لإيواء المسافرين من فقرائهم أو تجارهم في حلهم وترحالهم، في تنقلهم بين منطقة وأخرى، كان ذلك مجاناً اعتماداً على ما

---

(١) د.عبد العزيز العمري – الوقف وأثره في التنمية في عصر الخلفاء الراشدين، ندوة مكانة الوقف، ص١٨-٢٠.
فواز الدهاس – الوقف مكانته وأهميته الحضارية، ندوة مكانة الوقف، ص ١٩-٢٠.

(٢) عبد الملك السيد – الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٢٩-٢٣٠.

أوقف من وقوف على مثل هذه الخدمات، كما أنه عبدت ونظفت الطرق داخل المدن من أموال الوقف". بل "إن الأراضي المجاورة للسكة الحديد على بعد مائة متر من كل جانب على طول الخط من استانبول إلى بغداد والمدينة المنورة، قد تم وقفها لخدمة هذا المرفق الحيوي المهم،ولا زالت المستندات التي تثبت ذلك الوقف موجودة في المدينة المنورة، كذلك نشأت العديد من الأوقاف كانت مهمتها الأساسية إصلاح الطرق والقناطر والجسور"[1].

وجاء في كتاب رحلة ابن بطوطة ما نصه: "الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها،...، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك"[2].

كما أنشئت الجسور في المناطق التي هي بحاجة إلى ذلك وكذا تم شق الترع للزراعة في المناطق الزراعية[3].

٢-١-٢-المياه:

لقد كان حفر الآبار وإنشاء القناطر وشق الترع من الأمور التي اهتم بها الواقفون عبر التاريخ الإسلامي وعبر بلاد الإسلام الواسعة، وبخاصة في مكة والمدينة والطرق المؤدية إليهما، وكذا في المدن الزراعية كبغداد ودمشق والقاهرة والبصرة، فقد اشتهر عن عمرو بن العاص أثناء ولايته مصر، حرصه الشديد على إصلاح القنوات المائية في مصر، وكانوا لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاءً[4]، وحفر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه آباراً على طريق الحج للقادمين من البصرة، وهي المعروفة حالياً باسم (حفر الباطن)[5]، كما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر عامله على الكوفة أن يحفر لأهاليها نهراً يسقون منه فقام رضي الله عنه بحفره، وحفر أنهاراً أخرى في نواحي أخرى[6]. كما كثر

---

(١) صالح كامل - دور الوقف في النمو الاقتصادي، ضمن ندوة نحو دور تنموي للوقف، ص ٤٧، وانظر أيضاً: السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢٥-١٢٦.

(٢) ابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة، ص ١٠٤.

(٣) ابن عبد الحكم - فتوح مصر، ص ٩٨.

(٤) ابن عبد الحكم - فتوح مصر، ص ١٥١.

(٥) العبودي - معجم بلاد القصيم، ص ٣٢٥/١.

(٦) البلاذري - فتوح البلدان، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

حفر الآبار والقنوات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية سواء بأمر منه أو من أمرائه[1]، و لم يقتصر الأمر على حفر الآبار وشق الترع والقنوات، بل امتد إلى إقامة السدود عند الحاجة أيضاً، كما فعل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه مع وادي مهزور في المدينة، حيث أقام سداً لمنع وصول السيل إلى الحرم النبوي[2].

وهكذا أدت الأوقاف دوراً مهماً في توفير الماء للمقيمين وللمسافرين، وللمزارعين في كافة أنحاء الدولة الإسلامية وعلى مر العصور.

وقد استمر المسلمون على ذلك في كثير من البلاد الإسلامية، وأصبح تسبيل الماء العذب وتسهيل الحصول عليه من أهم الوجوه التي اهتم بها الواقفون، وانتشرت "السبل أو (الأسبلة) التي كان الغرض من إقامتها توفير مياه الشرب للمحتاجين في أماكن محددة داخل المدن وقد اهتم السلاطين والموسرون بهذا الجانب سواء للناس أم للحيوانات"[3].

ومن نماذج توفير المياه عن طريق الوقف: إنشاء الصهاريج اللازمة للمياه العذبة، تشييد البرك، حفر الآبار، والعيون[4].

٢-١-٣- دور الضيافة:

مما شملته الأوقاف أيضاً، الخانات والفنادق ودور الضيافة التي كانت تبنى للمسافرين والمحتاجين "وأنشأت الموائل والخانات لإيواء المسافرين من فقرائهم أو تجارهم في حلهم وترحالهم، في تنقلهم بين منطقة وأخرى،كل ذلك مجاناً اعتماداً على ما أوقف من وقوف على مثل هذه الخدمات"[5]. ومنها "بيوت للحجاج في مكة يترلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت ارض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج"، "فقد بنى الخليفة معاوية بن أبي سفيان داراً بمكة يقال لها دار المراجل كان بناها للمنفعة

---

(١) د. عبد العزيز العمري - الوقف وأثره في التنمية، ص ٢٢. وقد ذكر أمثلة كثيرة أخرى.

(٢) ابن شبة - تاريخ المدينة، ص ١٦٩/١.

(٣) المقريزي - الخطط، ٣٠٩/٢.

(٤) إبراهيم المزيني - الوقف وأثره في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، ندوة المكتبات الوقفية، ص ٢٤-٢٥.

(٥) عبد الملك السيد، الدور الاجتماعي للوقف، ٢٣٠.
السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢٥.

العامة، ولكي يتم طبخ الطعام للحجاج والصائمين في رمضان والفقراء، وإنما سميت بذلك نسبة إلى وجود قدور صفراء كبيرة لأعداد الطعام فيها"[1].

"وينسب إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أنه أمر بعمارة الخانات على طريق الحاج في خرسان شرق الدولة الاسلامية حيث كتب رضي الله تعالى عنه إلى سليمان بن أبي السرى أن أعمل الخانات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً فاقروه بما يصل به إلى بلده"[2].

٢-١-٤-مرافق أخرى (الحمامات العامة، المقابر، الأسواق، المراعي):

مما شملته أموال الوقف أيضاً إقامة الحمامات العامة، وإنشاء المقابر والقيام عليها وتوفير ما تحتاجه من أكفان وخلافه لتجهيز الموتى[3] وإقامة الأسواق أو توسعتها وفي ذلك يقول الباحثين: "لقد قام الوقف بدور أساسي -في الماضي- في تحويل العديد من الأعمال والأنشطة التي تدعم البنية الأساسية،...، وإنشاء الحمامات العامة، وإقامة الأسواق التجارية..."[4].

٢-٢-المساعدة في رفع مستوى المعيشة:

يعد الوقف عاملاً من عوامل تنظيم الحياة بمختلف جوانبها، وبخاصة الاقتصادية منها، حيث يرفع من مكانة الفقير ويقوي الضعيف ويعين العاجز ويحفظ حياة المعدم ويأخذ بيد الغريب والمحتاج، مما يؤدي في النهاية إلى رفع المستوى المعيشي لهذه الفئات من خلال الوقف لعدد من الخدمات التي تؤدي لها بخاصة[5]، ومن أمثلة الوقف في هذا المجال:

---

(١) الأزرقي - أخبار مكة، ٢/٢٣٧.

(٢) ابن الأثير - الكامل، ٥/٦٠.

(٣) السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) د.محمد دسوقي - دور الوقف في التنمية الاجتماعية، ص ٢٨.

(٥) صالح الطفيل - الوقف كمصدر اقتصادي، ص ٥٥.
مع الأخذ في الاعتبار أن جزءاً من هذه الخدمات يساهم في توفير البنية الأساسية أيضاً، كالمدارس والمستشفيات.
ولمزيد من الأمثلة حول هذا الجانب انظر:
عبدالله السدحان - دور الوقف في دعم مؤسسات الرعاية والتأهيل الاجتماعي، ندوة مكانة الوقف، ص١٢-٢٢.
مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢١-١٦٣.

٢-٢-١- رعاية الأيتام واللقطاء:

حرص المسلمون عبر التاريخ على رعاية الأيتام وتربيتهم من خلال الأوقاف بحثاً عن الأجر والمثوبة وطلباً لرفقة المصطفى عليه الصلاة والسلام القائل:("أنا وكافل اليتيم هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينها شيئاً)[١]، ومن صور رعاية الأيتام واللقطاء: إنشاء مكاتب لتعليمهم ورعايتهم والقيام بكافة شئونهم من مأكل وملبس ومسكن، ومن ذلك على سبيل "المثال مكتب السبيل الذي أنشأه الظاهر بيبرس بجوار مدرسته وقرر لمن فيه من الأيتام المسلمين الخبز في كل يوم بالإضافة إلى الكسوة في فصلي الشتاء والصيف، كذلك أنشأ السلطان قلاون مكتباً لتعليم الأيتام ورتب لكل طفل بالمكتب جراية في كل يوم وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف"[٢].

وقد انتشرت هذه الأوقاف بشكل كبير حتى أنه: "قلما يوجد أمير أو سلطان إلا وأقف للأيتام مكتباً لتعليمهم والصرف عليهم"[٣]. كما أنه "قلما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من الريع لتعليم عدد من الأطفال الأيتام، كما أنه قلما يوجد مسجد أو مدرسة وقفية إلا ويوجد بجوارها مكتب لتعليم الأيتام"[٤].

٢-٢-٢-رعاية الغرباء:

وقد اهتم المسلمون بهذا الجانب من خلال الوقف، حيث لا يوجد مدرسة وقفية في الغالب إلا ويوجد بجوارها بيت خاص للطلاب المغتربين، ويجري عليهم فيه ما يحتاجون من غذاء، وهذا مما ساعد على طلب العلم بشكل كبير وقد استرعت هذه الظاهرة الرحالة ابن جبير حيث كتب: "إن هذه الظاهرة ملموسة على نطاق واسع في بلاد المشرق عامة، وفي مصر خاصة، وأن هؤلاء الغرباء كانوا موضع رعاية الحكام الذين وقفوا الأوقاف الواسعة على المرافق التي خصصوها لهم"[٥].

---

(١) البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان، ٢٠٣٢/٥، رقم (٤٩٩٨).

(٢) سعيد عاشور - المؤسسات الاجتماعية، ص ٣٤٣.

(٣) عبد الله السدحان - دور الوقف، ص ١٥.

(٤) محمد أمين - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٦٢.

(٥) ابن جبير - رحلة ابن جبير، ص ٢٥٨.
وانظر أيضاً: يحيى جنيد ساعاتي - الوقف والمجتمع، ص ٥٥-٥٦.

٢-٢-٣- رعاية الفقراء والمعوزين:

ساهمت الأوقاف تبعاً لطبيعتها وأساس نشأتها، بدور كبير في رعاية الفقراء والمحتاجين من المسلمين، فكانت وثائق الأوقاف تنص على مساعدة الفقراء والمحتاجين "بل إن هذا يعد ركناً أساسياً في الوقف إلا أن المساعدات تكون بأشكال وأنواع مختلفة، فمن ذلك:توزيع المساعدات النقدية، وأحياناً أخرى، العينية كالأكل، وبخاصة في أوقات الغلاء والأزمات المالية التي كانت تمر بها الأمة، ومما يذكر في هذا المجال أن السلطان الظاهر بيبرس أوقف وقفاً لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين... وتجاوز الأمر إلى رعاية أولئك الفقراء حتى بعد وفاتهم ويكون، ذلك بتحمل تكاليف تغسيلهم وتكفينهم ودفنهم، ومن أشهر هذه الأوقاف (وقف الظرحاء) الذي جعله الظاهر بيبرس برسم تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم"[١].

٢-٢-٤- رعاية العجزة والعميان والمعوقين:

حيث كان يبذل لهم مجاناً ما يحتاجون إليه من سكن وغذاء ولباس وخدمة وتعليم أيضاً بل وقفت أموال لإمداد المقعدين والعميان بمن يقودهم ويخدمهم[٢]، وفي ذلك يقول أحد الباحثين "ونشأت أوقاف خصصت للقطاء واليتامى، وأخرى للمقعدين والعميان يتوفر لهم فيها السكن والغذاء والكساء. روى الرحالان الفرنسيان الأخوان (جان وجيروم تارو) في رحلتهما إلى مراكش أن فيها ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا بأسرها وهو بناء يكاد يكون بلدة وله ساحة لا يكاد الطرف يأتي على آخرها وفي هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ويأكلون ويشربون ويقرأون، ولهم أنظمة وقوانين وهيئة إدارة"[٣].

٢-٢-٥- فئات أخرى:

لم يقتصر الوقف على الجوانب السابقة، بل شمل جوانب وفئات أخرى كان لها دوراً ملموساً في تحسين ورفع مستوى معيشة الفئات المستفيدة منها ومن هذه الجوانب:

---

(١) عبد الله السدحان - دور الوقف، ص ١٩.

(٢) د.حسن أبو غدة - أضواء على الوقف، ص ٧٢. وللأستزادة أيضاً أنظر:
مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢٦-١٢٨.
محمد أمين - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٠٦.

(٣) د.محمد دسوقي - دور الوقف في التنمية الاجتماعية، ص ٢٨.

"مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم،...، ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور،...، ومنها مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر"[1]، "وفي كثير من الأقطار كان يشيع وقف مخصص لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح،...، وهناك أوقاف ينفق من ريعها في تحضير طعام الإفطار والسحور للصائمين الفقراء بالمساجد أو المجالس العامة وأيضاً لتقديم الضيافة للضيف الذي يحل على أهل القرية من خارجها،...، وعرف في بعض البلاد الإسلامية أنواع من الأوقاف التي تعبر عن ظروف البيئة وتقاليدها الخاصة، مثل أوقاف الحديدة في عمان وهي أوقاف لصيانة آلة مدورة مصنوعة من الحديد تستخدم في طهي الخبز"[2] "، ومن وجوه البر التي اهتم الواقفون بالصرف عليها من ريع أوقافهم كسوة العرايا والمقلين وستر عورات الضعفاء والعاجزين، وإرضاع الأطفال عند فقد أمهاتهم أو عجزهم عن إرضاعهم، ووفاء دين المدينين، وفكاك المسجونين المعسرين، وفك أسرى المسلمين العاجزين، وتجهيز من لم يؤد الحج من الفقراء لقضاء فرضه"[3] وهكذا يبرز الدور الكبير للوقف في رفع مستوى المعيشة الذي يعد أهم أهداف التنمية الاقتصادية.

٢-٣- الإسهام في تحقيق التنمية البشرية:

لا يمكن أن تتحقق التنمية الاقتصادية إلا من خلال تكامل تنمية المصادر الطبيعية مع تنمية الموارد البشرية المتمثلة في "تغيير مستويات المعرفة والمهارات والاهتمامات والقيم والاتجاهات والميول والقدرات والاستعدادات والخبرات والمعارف الخاصة بأبناء المجتمع،...، والتنمية الحقة لا يمكن أن تتحقق من مجرد توفر العناصر الاقتصادية والتكنولوجية، ولكن لا بد من ارتكازها على القيم الدينية والروحية والخلقية"[4]، ذلك أن أساس العلمية التنموية ينبع من العنصر الإنساني أساساً من حيث المهارات والخبرة والمستوى التعليمي"[5]، وهذا ما أداه بكل اقتدار الوقف الإسلامي، حيث امتدت

---

(١) مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢٧.

(٢) د.محمد دسوقي - دور الوقف في التنمية الاجتماعية، ص ٢٨-٢٩.

(٣) عبد الله السدحان - دور الوقف، ص ٢٠.
ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٠.

(٤) د.عبد الرحمن العيسوي - الإسلام والتنمية البشرية، ص ٥٩-٦٠.

(٥) المرجع السابق مباشرة، ص ١٨.

أموال الوقف لتشمل أول ما تشمل المساجد ودور العبادة لتنمية القيم الدينية والروحية والخلقية، ثم تناولت بعد ذلك دور العلم لتنمية الوعي وزيادة المعرفة والقدرات والمهارات الفكرية، كما شملت المستشفيات لتمتد التنمية للمحافظة على صحة أفراد الأمة الإسلامية، ونعرض لهذه الجوانب بشيء من الإيضاح.

٢-٣-١-المساجد ودور العبادة: (التنمية الروحية):

كان الوقف الإسلامي ولا يزال المصدر الأول والرئيس في بناء المساجد في كل بقعة من ديار الإسلام، كما "تعد الجوامع والمساجد أهم الأنماط التي حظيت بعناية الواقفين، حيث سعى على تعميرها وتشييدها وتزويدها باحتياجاتها من الفرش والبسط وخزائن الكتب والصرف على العاملين فيها"[١]، ويلحق في وقف المساجد كل ما يعين المصلين على أداء فرضهم ومن ذلك: تهيئة المساجد بالفرش، والتدفئة في فصل الشتاء، والتبريد في فصل الصيف، ووقف الآبار حول المساجد للوضوء والشرب،...الخ. وقد كان يوقف على كل مسجد ما يقوم به من أراض ودور ومحلات، وغير ذلك مما يمكن من توفير الريع الكافي للصرف على المسجد والعاملين فيه وصيانته. ولقد كان المسلمون يتسابقون إلى إقامة المساجد والصرف عليها والوقف لها[٢]. وبلغ "من اهتمام المسلمين بالأوقاف على المساجد ما ورد في وثيقة الجامع الأعظم بالجزائر خلال العصر العثماني والتي جاء فيها أن عدد الواقفين على هذا الجامع حوالي ٤٢٠ واقفاً منهم ١١٥ امرأة، وأن عدد الأملاك الموقفة عل هذا الجامع بلغت ٢٧٣ واقفاً وتفصيلها كالتالي:١٢٥ منزلاً و٣٩ حانوتاً و٣ أفران و١٩ بستاناً و١٠٧ إيراد. وكان منها ما يصرف على الوظائف الخاصة بالجامع، ومنها ١٩ أستاذاً و١٨ مؤذناً و٨ حزابين و١٣ موظفاً كانوا يشرفون على نشر وتنشيط الوعي الديني"[٣].

---

(١) إبراهيم المزيني - الوقف وأثره في تشييد بنية الحضارة، ندوة المكتبات الوقفية، ص ١٤.

(٢) عبد العزيز الداود - الوقف شروطه وخصائصه، ص ١١٨.

(٣) سليمان الطفيل - الوقف كمصدر اقتصادي، ص ٤٨. وللاستزادة حول الوقف على المساجد ودور العبادة انظر على سبيل المثال:
مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٢٦-١٣٧.
عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٣١.
د.شرف الشريف - أهمية الوقف في دعم المؤسسات الدعوية، ندوة مكانة الوقف، ص ٢٩-٣٠.

٢-٣-٢-المدارس ودور العلم:

يعد الوقف من أهم المؤسسات التي أدت فاعلاً في تنمية التعليم وفي التقدم العلمي عبر تاريخ المجتمعات الإسلامية، "ولقد شملت الأموال الموقوفة على التعليم كثيراً من الجوانب المختلفة التي تخدم عملية التعليم والتعلم، ومن أهم هذه الجوانب إنشاء المدارس وتجهيزها وتوفير العاملين فيها من معلمين وغيرهم، وتشجيع طلاب العلم على الانخراط في عملية التعليم من خلال التسهيلات التي وفرت لهم،...، و لم تقتصر الأموال الموقوفة على عمارة المدارس فقط بل شملت صيانة المدرسة وتجهيزها بالأثاث واللوازم المدرسية ودفع مرتبات العاملين فيها، وبعض الأوقاف شملت توفير مساكن للطلبة وتقديم الطعام للطلاب والعاملين في المدرسة، كما أن بعض الأوقاف شملت المعالجة الطبية والملابس،...، والمدارس إذ تتفاوت في إمكاناتها المادية وما تقدمه من خدمات، تتفاوت أيضاً في فروع المعرفة التي تدرسها من حيث الكم والكيف"[١]. وقد انتشرت تلك المدارس في أنحاء العالم الإسلامي ومن أشهرها على سبيل المثال: المدرسة الصالحية بمصر، والمدرسة الظاهري في القاهرة، والمدرسة المعتصمية في بغداد، والمدرسة المنصورية في مصر، والمدرسة المسعودية في بغداد، والمدرسة القباشية في مكة، كما بلغت الكتاتيب التي تم تمويلها بأموال الوقف عدداً كبيراً، فقد "عدّ ان ابن حوقل منها ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وذكر أن الكتاب الواحد منها يتسع للمئات أو الآلاف من الطلبة، وذكر أبو القاسم البلخي مدرسة في ما وراء النهر تتسع ثلاثة آلاف طالب ينفق عليهم وعلى الدراسة فيها من أموال موقوفة لهذا الغرض"[٢]، كما ذكر ابن جبير انه وجد في دمشق عندما زارها أربعمائة مدرسة موقوفة[٣]. ويذكر النعيمي أسماء المدارس في دمشق والوقوف التي وقفت عليها، ويوضح أنه كانت هناك إثنتان وخمسون مدرسة لتدريس الفقه الحنفي وثلاث وستون مدرسة لتدريس الفقه الشافعي وإحدى عشر مدرسة لتدريس الفقه الحنبلي، هذا كله إضافة إلى العديد من المدارس ذات التخصصات العلمية الأخرى[٤]، والأمثلة في هذا الجانب كثيرة جداً[٥].

---

(١) د.عبد الله المعيلي - دور الوقف في العملية التعليمية ندوة مكانة الوقف، ص ١٦-١٧.

(٢) عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٣١، ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٣) ابن جبير - رحلة ابن جبير، ص ١٥.

(٤) د.مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٣٦.

(٥) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر:
عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٣١-٢٤٠.

كما كان من أهم المجالات التي شملتها أموال الوقف إضافة إلى ما سبق هي المكتبات والكتب العلمية المتخصصة التي كانت تلحق في الغالب بالمدارس أو المساجد أو المستشفيات، كما أن بعضها كان مستقلاً، فقد استلزم وجود وانتشار هذه المدارس، استلزم أن يكون فيها دوراً خاصة للكتب، وقد عرفت هذه الدور بأسماء متعددة ومنها: خزانة الكتب، بيت الكتب، دار الكتب، دار العلم، بيت الحكمة، دار القرآن، دار الحديث...الخ، وقد احتوت هذه الدور على مختلف العلوم والفنون، "وقد انتشرت خزائن الكتب الوقفية في أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري لدرجة أننا قلما نجد مدينة تخلو من كتب موقوفة، وأصبحت هذا المكتبات بما فيها من كتب وقفية قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد"[1].

ومن الأمثلة على المكتبات الوقفية: دار الحكمة في القاهرة، دار العلم في الموصل، دار العلم في البصرة، دار العلم في بغداد، خزانة الكتب في حلب، الخزانة المالكية في مكة المكرمة، مكتبة عارف حكمت في طيبة، هذا بالإضافة إلى المكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع ومنها: الحرم المكي، المسجد النبوي، الجامع الأزهر في القاهرة، جامع أبي حنيفة في بغداد، جامع حلب، الجامع الأموي في دمشق، الجامع الظاهري في القاهرة، جامع القرويين في فاس، جامع الزيتونة في تونس، جامع نيسابور [2].

ومن أمثلة المكتبات الملحقة بالمدارس: مكتبة المدرسة النظامية، خزانة مدرسة الامام أبي حنيفة في بغداد، خزانة المدرسة المستنصرية، مكتبة المدرسة البشيرية[3].

ونتيجة لإيقاف المكتبات في مختلف أمصار ومدن العالم الإسلامي، انتشرت الثقافة لتشمل جميع طبقات الناس رجالاً ونساءً وحتى بين المماليك والعبيد وبين الجواري والمغنيات، وبين الفقراء واللقطاء والأيتام،...، وهكذا لم تفرق أموال الوقف الموقوفة على المكتبات بين غني وفقير، بل سهلت للجميع

= د.عبد الله المعيلي – دور الوقف في العملية التعليمية.

د.مصطفى السباعي – من روائع حضارتنا، ص ١٢٩-١٣٧.

د.أحمد المغربي – الإيمان واهتمام الوقف بالعلم التعليم، ندوة مكانة الوقف.

محمد الحصين – دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة، (مجلة جامعة الملك سعود).

(١) يحيى الساعاتي – الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ٣٣.

(٢) د.عبد الله المعيلي – دور الوقف في العملية التعليمية، ص ١٩- ٢٠.

(٣) عبد الملك السيد – الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٤١-٢٤٢.

سبل الوصول إلى أقصى المراتب العلمية والاجتماعية والسياسية"[1]، وأدت إلى "نشر العلم ورفع مستوى المعرفة الانسانية حتى في صفوف الغربيين الذين توافدوا على مدن الأندلس وصقلية والمغرب العربي ومصر والشام من أجل طلب المعرفة وتحصيل الثقافة مجاناً"[2].

٢-٣-٣- الرعاية الصحية:

تعد الرعاية الصحية للأفراد (بمختلف جوانبها) أحد الأركان الأساسية للتنمية البشرية ولذا لم تغفل الأوقاف هذا الجانب، بل أولته عناية فائقة. وإن المتتبع لتاريخ الطب والمستشفيات في الإسلام يجد تلازماً شبه تام بين تطور الأوقاف واتساع نطاقها وانتشارها في جميع أنحاء العالم الإسلامي من جهة، وبين تقدم الطب والتوسع في مجال الرعاية الصحية للأفراد من جهة أخرى بحيث يكاد الوقف أن يكون هو المصدر الأول بل والوحيد في كثير من الأحيان، للإنفاق على المستشفيات العامة والمتخصصة وعلى المعاهد والمدارس الطبية، وعلى دور الوقاية والنقاهة، كما أنه توجد أحياناً مدناً طبية متكاملة تمول من ريع الأوقاف[3].

ويذهب عدد من المفكرين إلى أن التقدم العلمي والازدهار الذي حدث في العلوم الطبية والعلوم المرتبطة بها كالصيدلة والكيمياء، كان ثمرة من ثمرات نظام الوقف في الإسلام[4].

ولا يتسع المجال لحصر الأوقاف الإسلامية في مجال الرعاية الصحية بجوانبها المختلفة ولكن نشير بإجمال على أمثلة لأشهر واكثر المجالات التي ساهم فيها الوقف في السطور الآتية:

٢-٣-٣-١-المستشفيات:

وقد كان يطلق عليها اسم "المارستان" أو "البيمارستان"[5]، حيث انتشرت وتنوعت المستشفيات

---

(١) عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٦٩.

(٢) د.حسن أبو غدة - أضواء على الوقف، ص ٧٢.

(٣) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨٠-٢٨٥.
د.عبد العزيز الشتري - الوقف ودعم مؤسسات الرعاية الصحية ندوة مكانة الوقف، ص ٢٨.
ابن جبير - رحلة ابن جبير، ص ٢٠١.

(٤) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨٢.

(٥) (البيمارستان) كلمة فارسية مثل الخان وتعني دار المريض أو المستشفى في الاصطلاح المعاصر، انظر:
د.عبد العزيز الشتري - الوقف ودعم المؤسسات الرعاية الصحية، ص ٢٩. =

في كثير من بلاد المسلمين ووقف عليها الأراضي والبساتين والـــدور والحوانيـــت وغيرهـــا لضمـــان استمراريتها في تقدم خدماتها.

ومن أشهر تلك المستشفيات التي قامت على الوقف على سبيل المثال:

- المستشفى العضدي ببغداد، الذي بناه عضد الدولة ابن بويه عام ٣٧١هـــ، ثم جدده الخليفـــة القائم بأمر الله عام ٤٤٩هـــ.
- المستشفى النوري في دمشق، الذي أنشأه السلطان نور الدين سنة ٥٤٩هـــ، وقـــد اســـتمر قائماً حتى سنة ١٣١٧هـــ
- المستشفى المنصوري بالقاهرة المعروف بمارستان قلاوون، وقد أنشئ عام ٦٨٣هـــ.
- مستشفى مراكش الذي أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بـــالمغرب، المتوفى سنة ٥٩٥هـــ.
- المستشفى الصلاحي في القدس، والذي أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـــ.
- مارستان ابن طولون، الذي بناه احمد بن طولون عام ٢٥٩هـــ ويعرف باسم البيمارســـتان العتيق، وقد استمر قائماً إلى القرن التاسع الهجري[1].

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن هذه المستشفيات كانت على أنواع شتى، فمنها المتنقلة التي تكون مـــع الجيوش في الغزوات، ومنها الثابتة وهي كثيرة تفيض بها المدن الإسلامية، و لم تخل بلدة صغيرة أو كبـــيرة يومئذ من مستشفى أو أكثر، ومنها مستشفيات خاصة للمساجين ومنها محطات أو مراكـــز إســـعافية تكون بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم بها الناس، ومنها المستشفيات العامة التي تفتـــح أبوابها لكافة أفراد المجتمع، ولمعالجة كافة الأمراض، كما أن منها المتخصصة التي كانت تعتني بمعالجـــة مرض معين كأمراض العيون أو الأمراض العقلية، أو الجزام، أو العناية بالعجزة...الخ [2].

= د.أحمد الغربي - الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم، ص ٣٣.

(١) د.مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا، ص ١٤٣-١٥١.
سليمان الطفيل - الوقف كمصدر اقتصادي، ص ٥٣.
د.عبد العزيز الشتري - الوقف ودعم مؤسسات الرعاية الصحية، ص ٢٩-٣٠.

(٢) انظر المراجع السابقة، بالإضافة إلى:
إبراهيم المزين - الوقف وأثره في تشييد بنية، ص١٨ - ١٩.
د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨١.

ولقد كان المسلمون بمختلف فئاتهم يتسابقون حسب قدراتهم المالية على الوقف، مما أدى إلى ازدهار مهنة الطب عندهم، حيث بلغ عدد المستشفيات في بعض المدن اكثر من خمسين مستشفى في وقت واحد، بينما لم يكن في أوربا في حينه أي مستشفى يوازي أياً منها[1].

"وقد بلغ من عناية المسلمين بالمستشفيات لكي تقوم بأداء الخدمات نحو مرضاها بصورة متكاملة وتساهم في تطور صحة المجتمع أنه كانت توقف الوقوف الكاملة لبناء أحياء طبية متكاملة الخدمات والمرافق، كما تنشأ في العصر الحاضر المدن الطبية الآن"[2].

٢-٣-٣-٢- التعليم الطبي:

كان من مستلزمات الاهتمام بالرعاية الصحية الاهتمام بالتعليم الطبي الذي يعد الركيزة الأساس في التقدم الصحي، ولذا امتد اهتمام الواقفين إلى هذا الجانب أيضاً، حيث أن "أمر إنشاء المستشفيات التعليمية وكليات الطب والإيقاف عليها وعلى الصيدليات لم يقتصر على الخلفاء والسلاطين، بل شمل الأثرياء ورجال الطب أنفسهم الذين أسسوا مستشفيات موقوفة ودرسّوا فيها طلبتهم، مثل: سنان بن ثابت، والرازي وغيرهم مثل شهيد العلماء الطبيب الذي استطاع أن يشفي ابنة أحد الأمراء فمنحه ثقله ذهباً بعد أن شفيت ابنته، فما كان من الطبيب إلا أن تبرع بهذا الذهب فأوقفه في سبيل إنشاء مستشفى تعليمي، كما أن ابن النفيس أحد أشهر الأطباء العرب في زمانه، وهو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى فلقب بابن سيناء الثاني، الذي كان يعمل في المستشفى المنصوري فقد بنى داراً مجاورة أوقفها على المستشفى وكان يدرس بها الطلبة ولما لم يكن متزوجاً أوقف مع هذه الدار وما حوته من كتبه الطبية والعلمية وكل ما يملك على داره العلمية هذه وعلى المستشفى المنصوري هذا[3].

ومن الجدير بالذكر أن "الاهتمام بالتعليم الطبي لم يقتصر على مصر من أمصار المسلمين لوحده، أو

---

(١) علي جمعة - الوقف وأثره التنموي، ضمن ابحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف، ص ١١٩.
د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨٤.

(٣) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨٤، ولعل صحة الفقرة الأخيرة هكذا: ولما لم يكن متزوجاً أوقف هذه الدار مع ما حوته..

على عصر من العصور، بل شمل كل أمصار ودول المسلمين، وفي كل عهودهم..."[1].

٢-٣-٣-٣- الخدمات الوقائية:

لم يقتصر الاهتمام بالجانب الصحي على إقامة المستشفيات والمراكز التعليمية الطبية بل امتد ليشمل "الصحة الوقائية، عن طريق الحجر الصحي ومكافحة الأمراض المعدية ورعاية الامومة والطفولة، ومراقبة التغذية، والعناية بالصحة المهنية، والتوعية البيئية أو التثقيف الصحي"[2].

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث خصص خدمات طبية معنية للمجذومين، ومنعهم من الاختلاط مع الناس، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، وقد شمل ذلك المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة الإسلامية. وكذا ما فعله الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ عندما أمر ببناء مستشفى خاص للعناية بالمجذومين ورعايتهم، وقد أمرهم بعدم الخروج منه مع إجراء الأرزاق عليهم أيضاً[3].

٢-٣-٣-٤- جوانب أخرى:

وبالإضافة إلى كل ماسبق فقد اشتمل الوقف على الجانب الصحي جوانب أخرى لها ارتباط بهذا الجانب، مثل إنشاء الحمامات العامة الملحقة بالمستشفيات، وبخاصة التعليمية منها، ورعايتها وصيانتها والاهتمام بنظافتها وشروط العاملين فيها.

كما تجاوزت تلك الرعاية الإنسان إلى الحيوانات، ذلك أن الحيوانات كانت تؤدي دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية، فهي أولاً ثروة اقتصادية ثم أنها كذلك أداة أو وسيلة الركوب والانتقال، كما كان لها دوراً مهماً في الحروب، ولذا "ففي مستشفيات الجيش المتنقلة التي كانت تعالج الجيش الإسلامي، وجدت بجانبها وحدات لمعالجة الحيوانات بأقسام متخصصة وملحقة بها، ومجهزة بالأطباء البياطرة ومعاونيهم، إذ كان المحسنون والورعون من المسلمين يوقفون عليها قرية لله تعالى"[4].

---

(١) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص٢٨٧، وقد ذكر الباحث تفاصيل كثيرة ومهمة عن الوقف على الجانب الصحي، والتعليم والتأليف الطبي.

(٢) سليمان الطفيل - الوقف كمصدر اقتصادي، ص ٥٢.

(٣) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٨١.
سليمان الطفيل - الوقف كمصدر اقتصادي، ص ٥٣.

(٤) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف،ص٢٨٠-٢٨١-٢٨٥.

٢-٤- مجالات اقتصادية أخرى:

بالإضافة إلى المجالات السابقة امتد إسهام الوقف ليشمل مجالات وجوانب أخرى ذات أثر اقتصادي مهم سواء أكان ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة ومن هذه المجالات:

٢-٤-١-زيادة فرص العمل:

تمثل ظاهرة البطالة مشكلة كبرى تؤرق مضاجع الأفراد والحكومات وتأخذ أبعاداً اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة، وقد قامت الأوقاف باسهام كبير في زيادة فرص العمل المتاحة أمام الأفراد في المجتمعات الإسلامية وقد تنوعت وتعددت تلك المجالات تبعاً لتعدد وتنوع الأوقاف وأغراضها، كما سبق الاشارة إلى جزء من ذلك[١]. ومن أوجه زيادة فرص العمل:رفع المستوى التعليمي والتأهيلي للأفراد، فتح مجالات توظيف كثيرة من خلال العمل في المدارس، والمكتبات، والمستشفيات، وإقامة وصيانة، ورعاية المرافق الكثيرة التي كان يشملها الوقف، "ويصعب حصر الوظائف التي وفرتها الأوقاف في المجتمعات الإسلامية لأنها تنشأ تبعاً لنوعية الوقف، ففي المدارس وكتاتيب الأوقاف ينشأ العديد من الوظائف الدينية والفقهية، وفي الجوامع والمساجد ينشأ العديد من الوظائف..."[٢].

٢-٤-٢-التقدم الصناعي:

من المجالات الاقتصادية التي ساهمت الأوقاف الإسلامية فيها مساهمة غير مباشرة المجال الصناعي، حيث ساهمت الأوقاف في تطور وتقدم الصناعات على اختلافها في ديار الإسلام، فعلى سبيل المثال أدى الوقف على المكتبات "إلى انتشار تجارة الورق وتطور المصانع التي تنتج هذا الورق، وإعداد عمال مهرة بهذه المهنة التي انتشرت في ديار الإسلام والتي تركزت وتمركزت في بغداد وسمرقند ودمشق وطرابلس وفلسطين والأندلس، وتبعهم في التطور التقني والفني المجلدون الذين أتقنوا فن التجليد..."[٣].

كما أدى الوقف على المساجد إلى الإبداع في صنع السجاجيد للصلاة وفي صنع أو استخراج أرقى أنواع البخور والمسك لتعطير الكعبة المشرفة والمساجد وكذا اتقان فن صناعة القناديل والثريات التي

---

(١) سبق الإشارة بإيجاز إلى عدد من المجالات الاقتصادية التي ساهم بها الوقف، أما المجالات الأخرى غير الاقتصادية فلم تدخل ضمن نطاق البحث، مع أن لها دوراً غير مباشر في زيادة فرص العمل المتاحة لأفراد المجتمع أيضاً.

(٢) سليمان الطفيل - الوقف كمصدر اقتصادي، ص ٥٩.

(٣) د.عبد الملك السيد - الدور الاجتماعي للوقف، ص ٢٧٥.

تعلق في المساجد والمدارس للإضاءة[1].

٢-٤-٣-العمارة والتشييد:

تطور الفن المعماري في العالم الإسلامي تطوراً كبيراً وقد كان ذلك يرجع بصفة رئيسة إلى الأوقاف التي نهضت بهذا الجانب، وبخاصة عمارة المساجد والمدارس والمستشفيات والأسواق، والتي كان لها أنماط معمارية فريدة مميزة اشتهرت على المستوى العالمي، وقد كان الدور الأكبر في ذلك يرجع إلى الأوقاف وإن لم يكن مقصوداً لذاتها.

٢-٤-٤- تشجيع التجارة:

من الاسهامات الاقتصادية غير المباشرة للأوقاف تشجيع التجارة عن طريق توفير الخدمات الأساسية اللازمة والميسرة لها، من تعبيد ورصف للطرق ومن "إقامة أحواض المياه المخصصة للدواب وأسبله المياه المخصصة للإنسان، والتي تقع على طرق تجارية هامة، قدمتها الأوقاف كخدمة إنسانية مجانية، ولكن كان لها أثرهام في رواج النشاط الاقتصادي على هذه الطرق"[2]، بل إن أموال الأوقاف امتدت لتشمل إقامة الأسواق التجارية، والخانات المعدة للمسافرين، وإقامة وصيانة الفنارات البحرية،.. الخ، مما ساهم بشكل كبير في تشجيع التجارة الداخلية والخارجية.

كما أن أموال الوقف ساهمت في زيادة الحركة التجارية بما تضخه من نقود في الأسواق لتامين متطلبات الأوقاف فقد جاء في نصوص أحد الأوقاف "ويحدد مبلغ لشراء حصر وبسط وزيت الوقود وشمع ومصابيح وأطباق نحاس وسلاسل وكيزان وأباريق وقدور وأدوات للمطبخ،...، وشراء اللحوم والتوابل والرز وحب الرمان والفرسك والقمح المقشور والحطب..."[3]. وأثر ذلك على القوة الشرائية ورواج الحركة التجارية في الأسواق ظاهرة لا يحتاج إلى مزيد إيضاح وهكذا نرى أن يد الوقف قد امتدت لتشمل كافة مناحي الحياة عبر تاريخ المسلمين.

---

(١) نفس المرجع السابق مباشرة، ص ٢٢٨.

(٢) د.علي جمعة محمد - الوقف وأثره التنموي، ص ١٢٠-١٢١.

(٣) عبد العزيز علوان سعيد عبده - أثر الوقف في التنمية الاقتصادية ص ١١٦.